

التصورات السوسiolسانية للطفل الجزائري بشأن اللغات دراسة ميدانية على عينة من الأطفال

Wafa BEDJAOU
جامعة الجزائر 2 - URNOP

يتميز الواقع اللغوي الجزائري بالتعقيد نظرا للغات المختلفة التي يتحدث بها الجزائريين (العربية، الفرنسية، الأمازيغية) ونظرا للمستويات المختلفة للغة الواحدة، فالعربية مثلا أنواع وذلك وفقا لنظرية فرجوسون والذي يرى أن هناك مستويات دنيا و مستويات عليا للغة الواحدة (العربية الفصحى لغة عليا مقارنة بالعامية أو الدارجة و التي تعد مستوى أدنى). هذا ما يعني أن هناك ازدواج لغوي على المستوى الكتابي و ازدواج لغوي آخر على المستوى الشفهي و هو ما يعرف باللغة الفرنسية بـ *bilinguisme et diglossie*. إلا أننا لسنا بصدد تناول هذين المفهومين، بل ما يهمنا من خلال هذا الرصد هو إبراز الوضع اللغوي الذي يعيشه الطفل الجزائري.

و يقتضي البحث في مجال الطفل التطرق لجميع التخصصات إذ هو مجال تتداخل فيه مختلف التخصصات العلمية كعلم النفس و علم الاجتماع و علوم اللسان و العلوم البيولوجية و المعرفية. وتندرج مداخلتنا تحت ما يسمى بعلم الاجتماع اللغوي الذي يدرس التصورات السوسiolسانية للأفراد بشأن اللغات. ولأن الاهتمام منصب في جميع الأحيان على تصورات الكبار عن اللغة سواء كانت اللغة الأم وفي هذا الصدد اللغة الجزائرية²² (ونقصد هنا كل اللغات التي تعبر عن الهوية الجزائرية سواء كانت عربية أم أمازيغية) أو اللغة العربية الفصحى أو اللغة الفرنسية، تصورنا أنه يجب أيضا البحث في التصورات التي قد يحملها الطفل بشأن اللغات التي يتكلمها أو يدرسها هذا لأنه هو المعنى في المقام الأول إذا أردنا تحسين مستواه التعليمي و اللغوي و إذا أردنا القضاء على ما يعرف بعدم الأمان اللغوي "l'insécurité linguistique" أو الانفصام اللغوي "schisoglossie".

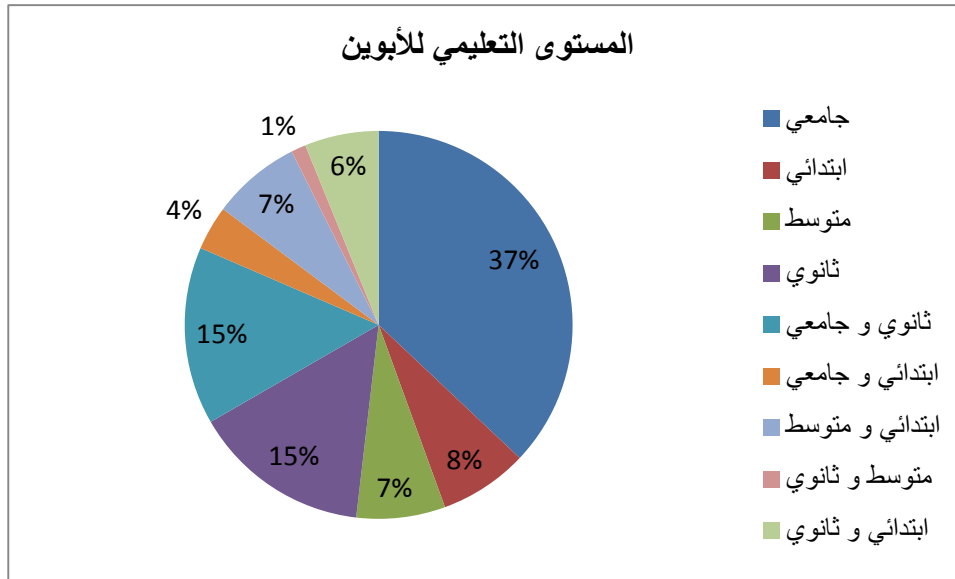
وعليه قمنا بإجراء بحث ميداني على عينة من الأطفال في الصف الخامس الابتدائي حتى نرى كيف يتصور هؤلاء الأطفال اللغات و ماهي المشاكل التي تواجههم أثناء تعلم اللغات حتى نقدم مقترحات تسهم في تطوير المناهج . وسبب اختيارنا لهذه العينة هو أن هؤلاء الأطفال يمتلكون " التعليم الأساسي" الذي يسمح لهم بالإجابة على الأسئلة. ويدرس هؤلاء الأطفال في مدرسة " الأخوين حسان باي" بحي شعبي ألا و هو بلدية بوروابة.

1 تقديم عينة البحث

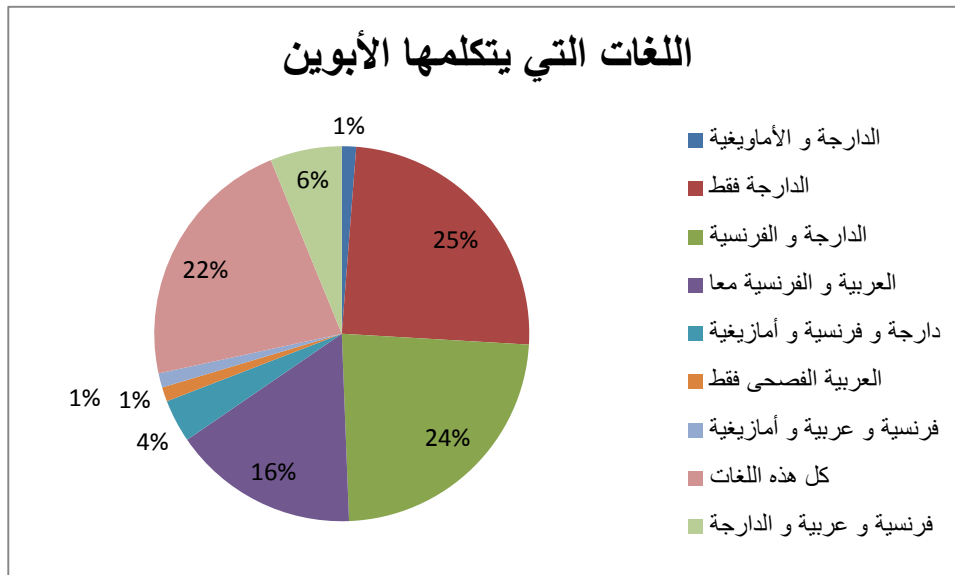
قمنا بتوزيع الاستبيان على 81 طفل في الصف الخامس موزعين على ثلاثة أقسام، وهذا هو العدد الإجمالي لهؤلاء الأطفال في مدرسة الأخوين حسان باي. أما فيما يتعلق باختيار المدرسة و موقعها، نرى أن المدارس الحكومية غير الخاصة هي الأجدر بتقديم الصورة الواضحة و الحقيقية عن المجتمع لأنها تمثل الأغلبية الساحقة.

و ركزنا على متغيرين توقعنا أن يكون لهما أثرا كبيرا في تحديد إجابات الأطفال ألا و هما المستوى التعليمي للأبوين و اللغات التي يتكلمها هؤلاء. ونرى من خلال الرسم البياني الأول النسب التي توضح المستوى التعليمي للأبوين. و يتجلى أن الأطفال ذو الأبوين الجامعيين هم الذين يمثلون النسبة الأكبر ، وهذا الأمر يدل على تطور المستوى التعليمي للأبوين مقارنة بالعواد السابقة.

²² لانفضل مصطلح اللهجة الجزائرية لأنها في نظرنا تنتقص من قيمة لغتنا التواصلية التي تعبر عن مقومات شعب و إن كانت تحتوي على كلمات فرنسية في إطار الإزدواج اللغوي. هذه الكلمات أصبحت جزء لا يتجزأ من اللغة الجزائرية.



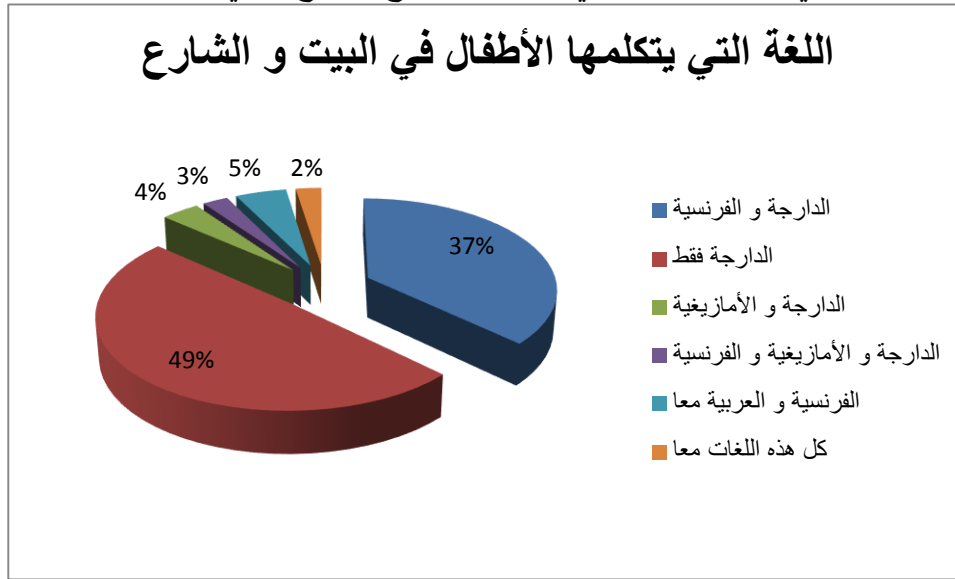
أما الرسم البياني الثاني، فيوضح نسب اللغات التي يتكلمها الأبوين. ونرى من خلال هذا الرسم أن هناك ثلاث نسب متقاربة جدا ألا وهي الدارجة فقط بنسبة 25% و الدارجة و الفرنسية بنسبة 24% و كل هذه اللغات بنسبة 22%. الأمر الذي يبين أن مسألة اللغات في الجزائر مسألة هوية و يجب الأخذ بعين الاعتبار جميع اللغات عند سن المناهج التعليمية. و على عكس ما يطالب البعض بتهميش اللغة الفرنسية و اللغات المحلية، ندعو من خلال هذا الملتقى بالحفاظ على موروثاتنا اللغوية سواء كانت استعمارية أم لا، فالانفتاح على الذات يفتح الطريق على الانفتاح على الآخر. كما أن هناك أمر آخر شد انتباهنا ألا و هو عدم اختيار اللغة العربية الفصحى إلا من تلميذ واحد، وفي أغلب الضن أنه لم يفهم السؤال جيدا. و هذا هو الواقع لا أحد في الجزائر يتكلم اللغة العربية الفصحى في البيت أو في الشارع لوحدها أوحى مع لغات أخرى. ماهو تأثير هذا الوضع في إجابات الأطفال هذا ما سنراه في تحليل النتائج.



وبالتالي الدارجة هي لغة الجزائريين التواصلية التي تعبر عنهم و عن ثقافتهم وتميزهم عن باقي الشعوب العربية. ولا يجب أن نتقص من قيمتها لأنها شفوية، بل يجب الانطلاق منها لتعليم اللغات الأخرى. ويقدم فؤاد لعروسي تعريفا جيدا للدارجة أو العربية الجزائرية :

« L'arabe maternel ou (algérien), langue de la majorité des locuteurs (algériens) (nous désignons cette variété linguistique comme " langue" contrairement à ceux qui continuent à l'appeler " dialecte" non pour des raisons linguistiques mais pour des raisons culturelles et politiques), est la véritable langue des conversations quotidiennes. L'arabe maternel se distingue nettement, sur le plan linguistique, des variétés précédentes : absence de désinences casuelles, modification du paradigme de la conjugaison, ordre différent des mots dans la phrase et surtout fréquence de termes empruntés aux langues occidentales. Il présente des variétés locales : les deux formes les plus importantes sont l'arabe citadin (celui des villes) et l'arabe rural, mais sans que l'inter-compréhension ne soit menacée ». (Laroussi F., 1994 : 709-710).

ويبين الرسم البياني الآتي أن هناك علاقة طردية بين ما يتكلمه الأباء و الأمهات و ما يتكلمه الأطفال، فعندما سألنا عن اللغة التي يتكلمها التلاميذ في البيت و الشارع، اتضح مايلي :

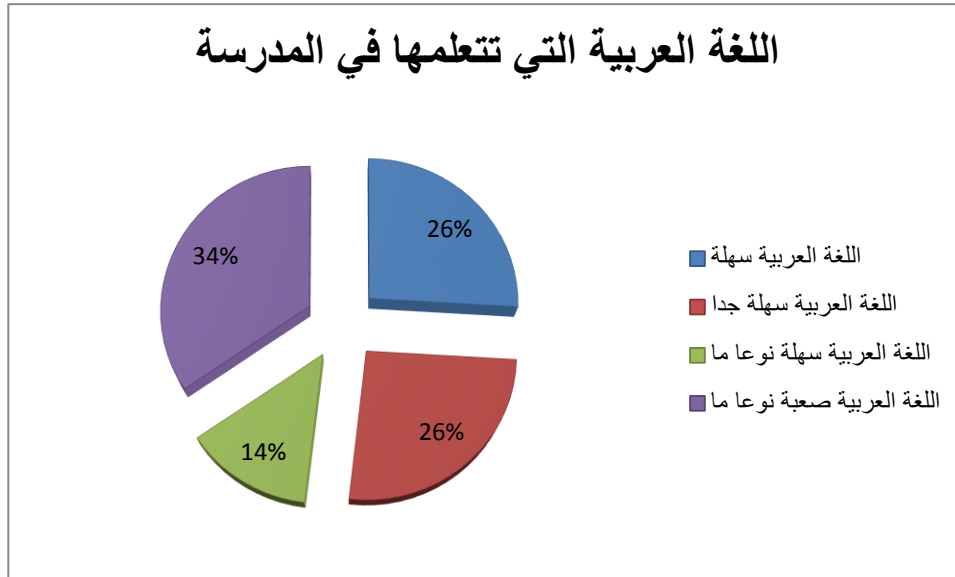


2- تحليل النتائج

قبل أن نقوم بتقديم النتائج، نستعرض مقالته عالم الاجتماع اللغوي لوي جون كالفي فيما يخص بمستويات اللغة العربية :

"La langue nationale, dont la définition linguistique pose quelques problèmes, doit essentiellement son statut au fait qu'elle est la langue de la religion. La langue du Coran, l'arabe dit classique, est une langue essentiellement écrite, qui peut-être utilisée pour les prêches ou pour certains enseignements...Par contre la forme promue au statut de langue nationale (qu'on appelle arabe moderne, arabe médian, ou comme je préfère, **arabe officielle**), qui procède de la précédente par enrichissement et modernisation du vocabulaire, est plus largement utilisé dans les médias et la vie publique. Restent les langues maternelles, que l'on baptise généralement dans l'usage officiel **dialectes** : les parlers arabes ou berbères. Les premiers sont bien entendu dans un rapport de filiation génétique avec l'arabe classique, les seconds ne le sont pas, mais dans les deux cas ils constituent les seuls véritables véhicules de la communication quotidienne. » (1999: 53-54).

و عندما سألنا الأطفال فيما يتعلق بمدى صعوبة أو سهولة اللغة العربية و نقصد بها طبعاً اللغة العربية الفصحى، كانت الإجابة كما هي موضحة في الرسم البياني التالي :



نلاحظ من خلال هذا الرسم البياني أن هناك مفاجأة على الأقل بالنسبة لنا، لأن إجابة " اللغة العربية صعبة نوعاً ما" كانت أكبر النسب بنسبة 34%، و نعتقد أن سبب هذا الاختيار هو عدم ممارسة اللغة العربية في البيت قبل التمدرس. و نرجع في هذا الصدد لما قاله ياسين دراجي (2009: 547) فيما يتعلق بتعلم اللغات في الجزائر. فالطفل المتمدرس سواء كان يتكلم العربية أو الأمازيغية مع أسرته يواجه وضعاً استثنائياً لأنه يشهد تمازج العديد من الوسائل اللغوية. و يؤدي هذا الوضع اللغوي المتعدد بالطفل إلى التعثر في تعلم اللغة العربية و اللغة الفرنسية، لأن بروز هاتين اللغتين يسبب مشاكل بداغوجية و لغوية و حتى ثقافية. و في الواقع، تعد السيايات اللغوية غير المناسبة للسياق اللغوي العام في الجزائر من الأمور التي قد تؤدي تدرس الطفل بل و أيضاً اندماجه في المجتمع.

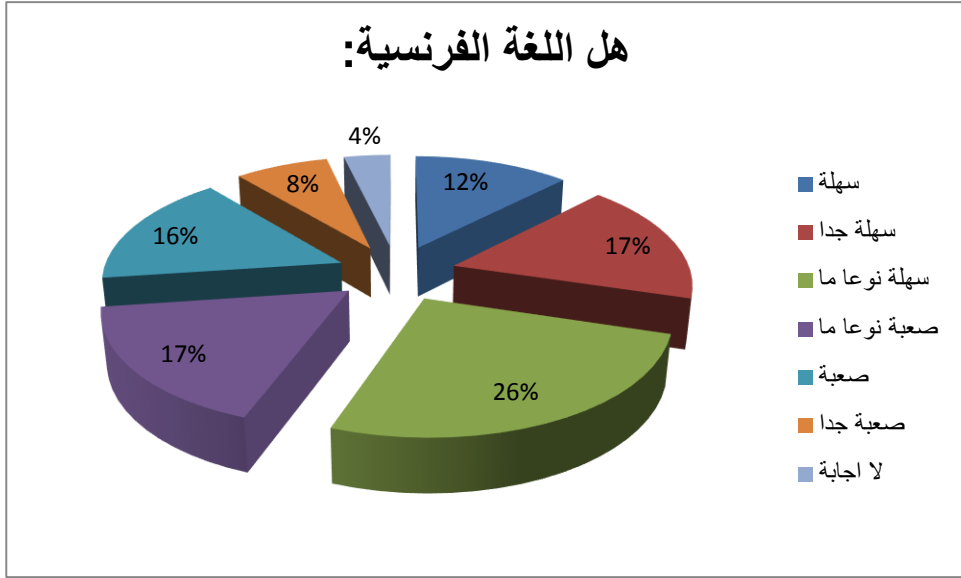
اللغة الأم (اللغة الجزائرية) + اللغة 1 (الفرنسية) = عدم تجانس بسيط طبيعي
اللغة الأم (اللغة الأمازيغية)+ اللغة 1 (اللغة الجزائرية)+ اللغة 2 (الفرنسية) = عدم تجانس لغوي معقد مصطنع.

ويرى دراجي أن عدم التجانس اللغوي المعقد الصطنع سببه المدرسة لأنها :

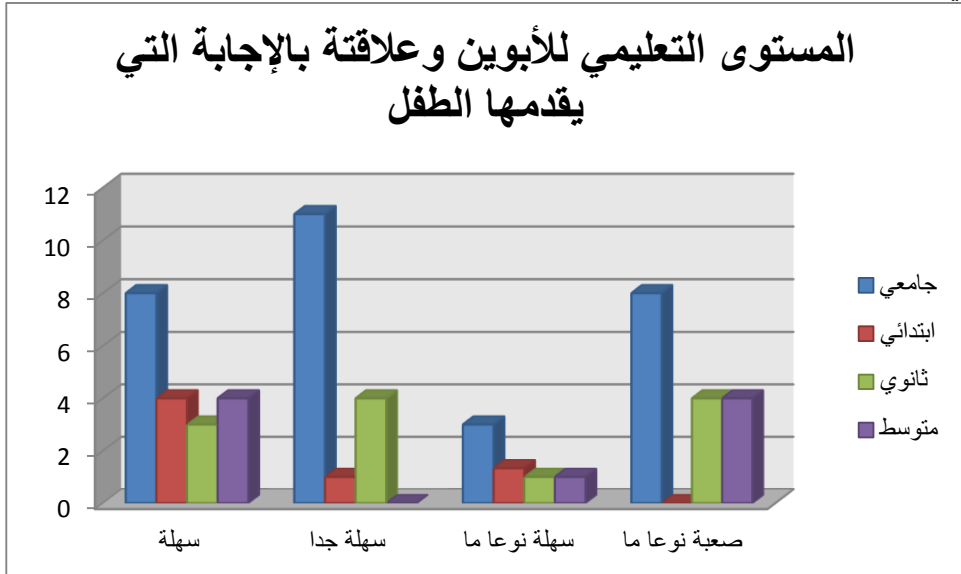
«bouleverse l'ordre naturel des choses par l'introduction d'un idiome présenté comme supérieur à sa langue maternelle et aux autres langues. (...) l'école algérienne en tant qu'instance de légitimation, renforce plutôt la rupture entre le champ linguistique familial et social qui a prévalu lors de la première socialisation linguistique de l'enfant et l'environnement linguistique institutionnel mis en place par le système éducatif». (Derradji Y., 2007 : 547).

ولهذا هو يدعو إلى الأخذ بعين الاعتبار قدرات الطفل التواصلية في لغته الأم حتى يتم تعليمه اللغة العربية على أسس علمية و مدروسة.

أما فيما يخص بالسؤال المتعلق بمدى صعوبة أو سهولة اللغة الفرنسية، كانت النسب متقاربة جداً مع تفوق إجابة " اللغة الفرنسية سهلة نوعاً ما" بنسبة 26% . و يمكن أن نفسر هذه الإجابة أن الطفل الجزائري يستعمل كلمات فرنسية شعورياً أو لاشعورياً ، لهذا تكون مؤلوفة له في المدرسة مقارنة باللغة العربية الفصحى التي لا يحتك بها إلا ابتداءاً من السنة الأولى الابتدائي. ولهذا يرى 17% أنها سهلة جداً و 12% سهلة ، أما النسب الأخرى فتري أنها صعبة 17% و صعبة نوعاً ما 16% و صعبة جداً 8%.



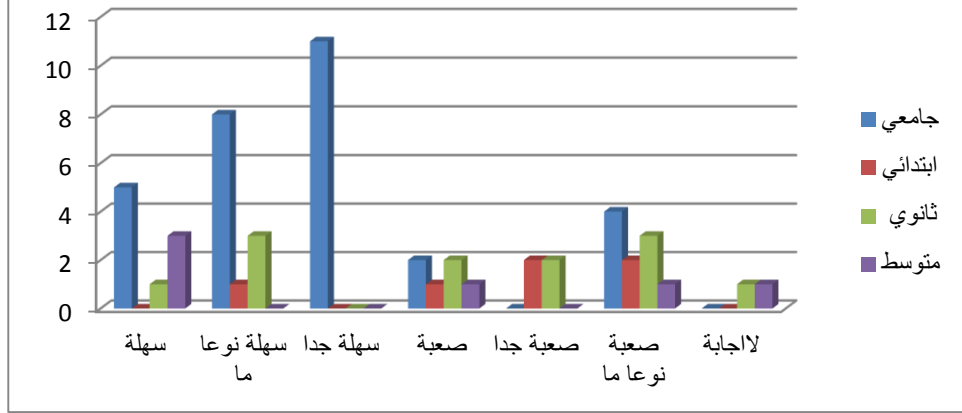
ولتفصيل النتائج بصورة أكبر و أدق، قمنا بربط الإجابات بالمستوى التعليمي للأبوين فتحصلنا على الرسم البياني التالي



وبالتالي كلما كان المستوى التعليمي عاليا، كلما تم اعتبار اللغة العربية سهلة.

أما فيما يخص اللغة الفرنسية، فكانت الإجابات كما هي موضحة في الرسم البياني الآتي :

المستوى التعليمي للأبوين و تصور الطفل للغة التي يتكلمها



يتضح إذا أن المستوى التعليمي للأبوين لديه دور في تحديد مستوى الأبناء، فالتلاميذ الذين يعتبرون اللغة الفرنسية سهلة جدا، هم أبناء لجامعيين. أما الذين يعتبرون اللغة الفرنسية صعبة جدا هم أبناء لأولياء مستوى تعليمهم ابتدائي أو ثانوي أو متوسط.

حاولنا من خلال هذه الدراسة الميدانية أن ندق ناقوس الخطر فيما يتعلق بالسياسات التعليمية التي لاتأخذ بعين الاعتبار بالتكوين اللغوي للطفل الجزائري والتي تسهم في عرقلة تطوره الفكري و اللغوي. حان الوقت لتصحيح المسار العام للمناهج البداغوجية. ويمكن الحل في تعليم اللغات انطلاقا من اللغات الأم. و يجب غرس فكرة تقبل كل اللغات حتى نقضي على ما نعاني منه بما يعرف بالجهوية. كما لا يجب التقليل من شأن أية لغة جزائرية لأنها تقلل من شأننا.